كلمة الأستاذ عاصم البيطار
في حفل استقباله عضوًا في المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحفل الجليل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تكرم أعضاء مجمع اللغة العربية بانتخابي عضوًا عاملاً بينهم، فلهم جزيل الشكر، وأسأل الله أن أكون جديرًا بثقتهم، قادرًا على أن أكون عونًا لهم في أداء المهمة الجليلة التي يتحملون أعباءها، أشاركهم في الذّودِ عن حياض لغتنا الشريفة، وردِّ مكائد أعدائها، وبذل الجهد المخلص في الحفاظ على أصولها مع التوسّع في وضع المصطلحات الحديثة، والإحاطة بما استحدثه الفكر البشري من تقدّم في مختلف وجوه الحياة، لننفي عن لغتنا المعطاء ما تُتّهم به من جمودٍ وتمسك بالقديم، أو التنكر لها، والخروج على أصالتها، والجري وراءَ ما يغريهم به أعداؤها من نصرة اللهجات المحلية المفرّقة على العربية القرآنية الجامعة للشمل، الموّحدة للأمة التي غدت أشلاء ممزّقة تسهل السيطرة على مقدّراتها وخيراتها.

أيها الحفل الكريم

إن الحديث عن أستاذ الأجيال الدكتور عادل العوا رحمه الله رحمةً واسعةً في وقت قصير عسير جدًّا، فهو بحر واسع من المعرفة بمعناها الشامل، والتي يزينها خلق كريم، وإيمان عميق بالرسالة الثقافية التي شاء الله أن يجعله من حملتها، العاملين على نشرها، الحريصين على بناء شباب المستقبل في ضوئها.

لقد كان لقائي الأول بالفقيد الكبير عام ثمانية وأربعين وتسعمئةٍ وألف حينما تقدَّمت بطلب إلى ما كان يسمى آنذاك بالمعهد العالي للمعلمين، وكان أحد ثمانية أعضاء في لجنة المقابلة؛ وكنت ذكرت في الاستبانة التي تقدمنا بها أن من الكتب التي قرأتها: «حياة محمد» للعلامة محمد حسين هيكل، واستوقفني طويلاً عند مسألة الوحي، ونزول جبريل عليه السلام من السماء، وحمله كلام الله ليبلّغه الرسول الكريم إلى العاملين، وتساءل رحمه الله: ألا يمكن أن يكون ذلك من باب الفيض النفسي، أو التجلّي الإلهي، أو الإشراق الروحي، وكنت أحسّ بالإشفاق من أن أخفق في الردّ، على ما أحفظه من آيات وأحاديث تدور حول الوحي وطريقة تبليغه، وكنت أنظر إلى الدكتور جميل سلطان رحمه الله، وكأنني أنتظر منه العون، ولكنه بقي صامتًا، وانتهت المقابلة، وكنت من الفائزين عن مدينة دمشق، واستدعاني د. جميل سلطان وقال لي: لقد أحسنت في كلامك، وثباتك على موقفك، وكان د. العوا في مناقشته يحاول أن يثيرك ليستنفر كل قدراتك، وهو يرى أن المربي الموفق هو الذي يستطيع أن يلفت طلابه إلى مزايا يمتلكونها ولا يستعملونها.

وكان اللقاء الثاني في كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين (كلية التربية الآن)، وكنا نستمع إلى فقيدنا الكبير بشغف ومحبة، وكان يتحدث إلينا بلغة عربية سليمة، ويعرض مسائل علم النفس والفلسفة بوضوح وإشراق، ودرسنا عليه سنوات لم نسمع منه خلالها إلا ما يملأ قلوبنا احترامًا له، وإقبالاً على محاضراته، وكنت كثيرًا ما أرجع بذاكرتي، وأنا أستمع إليه، إلى قصة قديمة جرت لي مع سيدي الوالد الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله وأعلى غرفته في الجنة،

وملّخصها أنه استدعاني، بعد تعييني معلمًا في ثانوية الكواكبي، وقال لي: أي بنيّ، لقد غدوت الآن معلمًا، وهذه مهنة الأنبياء والعلماء والمصلحين، فماذا أعددت لها؟ فأجبته بأنني أعددت نفسي إعدادًا علميًا جيدًا، وأنني سأكون حريصًا على الوقت، ومواظبًا على العمل، ومؤمنًا بخطر ما أنا مقدمٌ عليه... وأفضت في الحديث أكثر من نصف ساعة، والوالد يصغي باهتمام واضح، حتى إذا ما انتهيت قال لي كلمته التي كانت منهاج حياتي المهنيّة بعد ذلك، قال: كلّ ما قلتَه يا بني ضروري، ولكنك أغفلت شيئًا مهمًّا هو الذي يجعل كل ما ذكرته يؤتي أكله، قلت: وما هو؟ قال: أن تحمل الطلاب على محبتك، فإن أحبوك استفادوا منك، وإن لم يحبّوك ذهبت أكثر جهودك أدراج ارياح... وقد أحببنا الراحل الكبير حبًّا ملأ قلوبنا، يتكلم فلا نملك إلا أن نصغي، ويشرح النظريات والمذاهب الفلسفية فتنساب إلى عقولنا بيسر، رحمه الله، وجزاه عنا أفضل ما يجزي عاملاً عن عمله.

ولعل أستاذنا الراحل كان حريصًا على تطبيق منهجه التربوي في تكوين أسرته، فقد اختار ملكًا كريمًا لتكون أم أولاده، وقد أطلق على أولاده أسماءً تحثهم على أن يبذلوا أقصى جهودهم ليستحقوها، وكانوا عند حسن ظن والديهم بهم، لقد سمّى ابنه الأول: «نبوغًا» فكان طبيبًا نابغةً في اختصاصه، وسمّى: شروقًا وفتونًا ونوّارًا، وكانوا في حياتهم تجسيدًا للمعاني الجميلة التي تدل عليها أسماؤهم.

أيُّها السيدات والسادة

ولد فقيد العلم والخلق الدكتور محمد عادل بن عارف العوّا في دمشق عام واحدٍ وعشرين وتسعمئة وألف، وأنهى دراسته الثانوية عام ثمانية وثلاثين وتسعمئة وألف، وأُوفد إلى فرنسة فدرس في جامعة السوربون، وحصل منها على درجة الإجازة الجامعية الأولى ثم على درجة الدكتوراة في الآداب والفلسفة عام ١٩٤٥م، وقد كان لهذه السنوات العجاف، كما يسميها رحمه الله، كان لها أثر كبير في تفكيره وقيمه، فقد شهد فيها ويلات الحرب العالمية الثانية، وذاق مرارة وحشية الحضارة إذا خرجت عمّا ينبغي لها في خدمة الإنسان، وتقارب أبناء البشرية بعضهم من بعض، ونشر قيم الحب والخير والثقافة المشرقة بينهم، وبقيت هذه القضية شاغلة له حياتَه كلها، ونشر عشرات الكتب التي تدور حول القيم والأخلاق والكرامة الإنسانية والحضارة والمدنية، من تأليفه أو ترجمته؛ كما زادته هذه السنوات إيمانًا بأمته العربية، وتمسّكًا بالانتماء إليها، وحرصًا على الكشف عن الوجوه الرائعة الخصبة من تراثنا الخيّر ولغتنا الغنية التي كانت حلقة إيجابية في سلسلة تطوّر البشرية من النواحي الدينية والفلسفية والعلمية والأخلاقية.

عاد الدكتور العوا رحمه الله إلى الوطن عام ١٩٤٥م وابتدأ التدريس في المرحلة الثانوية ودار المعلمين في دمشق. ثم أُسِّست كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين عام ١٩٤٦م فدرّس فيهما، وكُلِّف عام سبعة وأربعين إدارة المعهد العالي للمعلمين، وسُمّي أستاذًا ورئيسًا لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كلية الآداب عام ١٩٤٩م طوال مدة خدمته الجامعية، كما رأس، إلى جانب عمله الجامعي، لجنة التربية والتعليم في وزارة المعارف (كما كانت

تسمّى آنذاك) إلى آخر عام خمسة وخمسين. وسُمّي وكيلاً لكلية الآداب ثم عميدًا لها لمدة ثماني سنوات. وللفقيد الكبير مشاركة واسعة في التدريس في الوطن العربي. فقد درّس في جامعات الأردن ولبنان والكويت والجزائر، كما قضى بعض الوقت أستاذًا زائرًا في جامعة هلسنكي. وقد اكتسب شهرة عريضة بثقافته وسعة اطلاعه خارج حدود وطنه، فدعي للمشاركة في مؤتمرات وندوات كثيرة، منها: مؤتمر لليونسكو في بيروت عام تسعة وأربعين، وفي باريس عام واحد وخمسين، وشارك في ندوة أقامتها الجامعة الأمريكية في بيروت عام ستة وخمسين لدراسة فلسفة تربوية متجدّدة لعالم عربي متجدد، ومؤتمر للمستشرقين عقد في ميونيخ عام سبعة وخمسين، وموضوعات أخرى في دمشق وكراتشي والجزائر. وكانت له مشاركة فعالة في اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، وكان عضوًا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومقرّر لجنة الترجمة والتبادل الثقافي عن القطر العربي السوري.

ومن نعم الله على الإنسان العالم المخلص لعلمه وأمته أن يبارك الله له في وقته، فأستاذنا رحمه الله أغنى المكتبة العربية بعشرات الكتب تأليفًا وترجمة، بالإضافة إلى أعباء التدريس، وكثرة الأسفار، والعمل خارج القطر في الجامعات المختلفة؛ وقد أخبرتني ابنته الدكتورة شروق أنه كان لا يفارق مكتبته مادام في الدار، وأن زوجه الكريمة السيدة ملك كانت تهيئ له كل ما من شأنه أن يعينه على تأدية رسالته، فقد كفته مؤونة تدبير ما يلزم الأسرة من طعام وشرابٍ ولباس، وجعلتْ وقته كله ملكًا له ولعمله.

أيها الحفل الكريم

لقد كان فقيدنا الكبير رحمه الله عربيًّا صادق الانتماء إلى أمته ولغته، وفيلسوفًا واسع الاطلاع على المذاهب الفلسفية وتطورها عبر التاريخ، وكان مؤمنًا عميق الإيمان بأن القيم السامية، والأخلاق الفاضلة هي التي تتيح للأمة أن تبقى وطيدة الأركان، متينة البنيان، شامخة عزيزة مهما مرّ بها من محن، وتكالبت عليها الفتن، وكانت مؤلفاته الكثيرة لا تكاد تخرج عن هذه الأطر، وقد لخص أستاذنا د. شاكر الفحام موضوعات كتبه في خمسة مجالات هي:

١- الحضارة والمدنية. ٢- الفلسفة العامة. ٣-الأخلاق. ٤- فلسفة القيم. ٥- الفكر العربي.

ومما يحمد له أنه اهتم في أكثر كتبه المؤلفة بالأخلاق والقيم، ودراسة الفكر العربي، والدفاع عن أمته، ودحض حجج أعدائها الذين يرمونها بالجمود والقصور والتأخر عن الركب العالمي، وبيان دورها الحضاري الذي كان له الفضل الأكبر في اتصال سلسلة الحضارة البشرية.

وكان الراحل الكريم يؤمن بأن الشباب المسلَّح بالعلم والأخلاق الكريمة هم اللبنات التي يرتفع بنيان الوطن بها، ولذا كان حريصًا على غرس بذور العلم والقيم السامية في نفوس الشباب، وهو على يقين بأن المستقبل سيكون مزدهرًا على تعثر الأمة في حاضرها.

ومن أقواله: «إنني بطبعي متفائل، وأمنيتي أن تبقى قوميتنا، كما كانت، قوميةً إنسانيةً تعتزّ بإسهامها في تقدم حضارة البشر، هكذا كنّا، فلنكن أبدًا...»، وقد افتتح كلمته في حفل استقباله عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، عام واحد وتسعين بقوله: «العروبة انتماءُ محبةٍ وولاء، محبة للأمة العربية خير الأمم، وولاءٍ

للخُلَّص الكَمَلَة الفضلاء من عشّاق الذود عن حياضها، والنهوض بإمكاناتها، ولاسيّما من بني جلدتها؛ وهل من يضارع رسل مجمع اللغة العربية جهادًا صادقًا في سبيل الأمة العربية، ولغتها الشريفة النامية».

أيها السيدات والسادة:

يؤسفني أشدّ الأسف ألا يسعفني هذا الوقت القصير ببيان الجوانب المشرقة السامية من شخصية الراحل الكريم الفكرية والخلقية والتربوية والثقافية بشكلٍ عام، وقد كتب العلماء الأجلاء في حفل استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية، وفي حفل تأبينه، وفي ذكرى مرور سنة على وفاته، كتبوا كلمات أفاضت في الحديث عنه، وعدّدت مآثره، واستعرضت أغراضه وآراءه، ولاتزال آفاق القول فيه متسعة خصبة، وليس من الغريب أن تكون لصحبته الطويلة لرسائل «إخوان الصفا» وما كتب عنها وعنهم، آثارها البعيدة في تكوين فكره العلمي، وحماسته للعروبة والعربية، فهم، كما يصفهم أبو حيّان التوحيدي، «جماعة تآلفت قلوبهم بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فنذروا جهدهم وجهادهم، وأنفقوا مددهم وأعمارهم في سبيل هذا الهدف السامي الرفيع، والغرض الأسمى النبيل».

أيها الإخوة:

لقد رحل الفقيد الكريم بجسده، ولكنه لايزال يؤدي رسالته بفكره النيّر، وكتبه الثرية؛ والسعيد السعيد من خدم أمته حيًّا وميتا، فالحياة مهما طالت قصيرة إذا قيست بالزمن، وحياة الإنسان المادية كزيارة ضيف أو سحابة صيف أو مرور طيف، ولا يبقى منه إلا فكره وعمله، والدليل على ذلك أننا اليوم نذكر أعلامًا من الجاهلية والعصور الإسلامية جميعًا يعيشون في أفكارهم وآثارهم بيننا، ونعيش مع ملايين البشر ممن يولدون ثم يموتون فلا يكاد يذكرهم

أحد، وقد أصاب الشاعر كبد الحقيقة حين قال:

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما الميْتُ مَيِّتُ الأحياء

وقال آخر:

أخو العلم حيٌّ خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميْت وهو يمشي علىالثرى يُعَدّ من الأحياء وهو عديم

رحمك الله يا أستاذنا الكبير، وإنا ليعزينا أننا مانزال ننهل من معين علمك، وأنك باقٍ في كتبك والنابهين من طلابك، وكأنك وأمثالك المقصودون بقول الشاعر:

ولا يموت ذوو فكرٍ ومعرفة إذا استقام على أعقابهم أثر

وقول الآخر:

فقدناه لكنْ نفعُه الدهرَ دائم وما مات من أبقى علومًا لمن وعى

وإني ليشرّفني أن يكون مسك الختام لكلمتي الشكر الصادق للسيد الرئيس على تكرمه بإصدار مرسومٍ جمهوري بتعييني عضوًا عاملاً في مجمعنا العربي، وأرجو أن أكون لذلك أهلاً، وبه جديرًا، ولكنني لا أملك منع نفسي من أن تردد قول الشاعر العربي:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على هرم

ولا أجدّد التعزية لأسرة الفقيد الأستاذ الراحل وحدها، فكلنا في المصاب شركاء، وعزاؤنا أن الفقيد يعيش في قلوب المثقفين، وقد سجّل اسمه بين الخالدين، رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى غرفته في الجنة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.